رؤيـــة البيـــت

إذا عَاينته العَيْنُ زَالَ ظلامُها　　　وزال عن القلبِ الكئيبِ التألُّمُ

ابن قيم الجوزية

◻ رؤيـــة البيـــت ◻

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنا ، يترددون إليه ويرجعون عنه ، ولا يَرَوْن أنهم قضوا منه وطرا ، لما أضاف الله تعالى ذلك البيت إلى نفسه ، ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله : ﴿ **وطهر بيتي للطائفين** ﴾ تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم ، فكلما ذكر لهم ذلك البيت الحرام حَنُّوا ، وكلما تذكروا بعدهم عنه أَنُّوا .

لا يذكر الرمل إلا حَنَّ مغترب ... له بذي الرمل أوطار وأوطانُ
تهفو إلى البان من قلبي نوازعه ... وما بي البان بل من داره البانُ

فللّه درها من رؤية !! رؤية البيت .. لحظات كأنها ليست من الدنيا .

﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ... ﴾ الآيات .

بيتٌ بَنَتْهُ يدُ التقوى وشَيَّدَهُ ... أبو النبيينَ .. للأجيالِ يَرْفَعُهُ
أمجادُه في كتابِ الدهر حافلةٌ ... ثوبُ الجلالِ عليه الرَّبُّ يَخْلَعُهُ
تَدَرَّعَتْ بسياج الدينِ حُرْمَتُه ... واللهُ من عبثِ الباغِينَ يَمْنَعُهُ
أَوْلَاهُ بالحج تَشْرِيفًا وتَكْرُمَةً ... حتى غَدتْ موئلَ التقديس أربعُهُ
وكعبةُ الروحِ بالتوحيدِ شاهِدَةٌ ... كالشمسِ تسطعُ نوراً وهي مَنْبعَهُ

- بيت خلق من الحجر ... وأضيف إلى الله ؛ فصار مغناطيس أفئدة الرجال .
- بيت من وقع عليه طرفه بُشِّر بتحقيق الغفران .
- بيت مَنْ طاف حوله ؛ طافت اللطائف بقلبه ، فطوفة بطوفة ، وشوطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان !! .

- بيت ما خسر من أنفق على الوصول إليه ماله .
- بيت ما ربح من ضنَّ عليه بشيء .
- بيت من زاره نسي مزاره ، وهجر دياره .
- بيت لا تُستبعدُ إليه المسافة .
- بيت لا تُترك زيارته لحصولَ مخافة ، أو هجوم آفة .
- بيت مَنْ صبر عنه ؛ فقلبه أقسى من الحجارة .
- بيت من وقع عليه شعاع أنواره ، تسلى عن شموسه وأقماره .
- بيت ليس العجبُ مِمَّنْ بقي عنه كيف يصبر، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع.

ولله در طبيب القلوب ابن القيم حين يُصور رؤية البيت في ميميته :

ولمَّا رَأَتْ أبصارُهم بيتَهُ الذي قُلوبُ الورى شوقًا إليه تَضرَّمُ
كأنَّهُمُ لم يَنْصَبُوا قَطُّ قَبْلَهُ لِأَنَّ شَقَاهُمْ قد تَرَحَّلَ عَنْهُمُ
فلِلّهِ كَمْ مِنْ عَبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ وأُخرى عَلَى آثارِها لا تَقَدَّمُ
وقد شَرِقت عينُ المحبِ بدَمْعِهَا فينظُرُ مِنْ بَيْنِ الدُّمُوعِ ويُسجِمُ
إذَا عَايَنَتْهُ العينُ زَالَ ظَلَامُهَا وَزالَ عَن القلبِ الكئيبِ التألُّمُ
ولا يَعْرِفُ الطَّرْفُ المُعَاينُ حُسْنَهُ إلَى أن يعودَ الطرفُ والشوقُ أعظمُ
ولا عَجَبٌ مِنْ ذَا فَحِينَ أضافَه إلِي نفسِه الرحمنُ فهو المُعَظَّمُ
كساهُ من الإجلالِ أعظَمَ حُلَّةٍ عليها طِرَازٌ بالملاَحَةِ مُعْلَمُ
فَمِنْ أجْلِ ذَا كُلُّ القلوبِ تُحِبُّهُ وتَخضَعُ إجلالًا لَهُ وتُعَظِّمُ

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال :

« ينزل على هذا البيت كل يوم مائة وعشرون رحمة : ستون للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين »(١).

---

(١) إسناده حسن : رواه ابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن كما قال العراقي في تخريج الإحياء ، وقال أبو حاتم : حديث منكر . =

فِي عيوني من بيت مكة نورٌ وبقلبي ومهجتي وشُعوري
مِلءُ روحي ، وحَقِّ نافخِ رُوحي لهفةٌ نَحْوَ بيتِهِ المعمــورِ
إنــه في بصيرتي يتــراءَى رغم غَمْضِي وحُلْكَةِ الدَّيْجورِ
وكَأَنَّ الآياتِ مِنْ كِسْوَةِ الكعـ بةِ ، تزهو على السَّوادِ الوقورِ
نُقِشَتْ فوق غُرَّةِ الدهرِ هَدْياً أَبدِيًّا ، بجَوْهَرٍ من نُــورِ
بسمةُ المؤمِنَ النَقِيِّ يُنَاجي في الدجى ربَّه بلقبٍ طهورِ
مُشْرِقٌ كالسَّنَا ، كومضةِ نارٍ أوقِــدَتْ للسراة في رأسِ طُورِ

ولله كم في الرؤية من نفحات ونفحات ومعانٍ عاطرات .

وكأني والبيتُ يُشرقُ حولي شامَخ المجدِ في سَنا الأسحارِ
ذاب جُرْمي في ماءِ زمزمَ حتَّى خِلْتُني طِرتُ من خِلالِ إزاري
جاوز الروحُ بي معالِمَ أرضي فالسمـواتُ والعوالــمُ داري
والمفاهيمُ ، في مَسارِحِ روحي والمِساحاتُ ، غيرُ ذاتِ قَرارِ
فقيامي في الحِجْرِ ، لاحَ سُجُودًا وسجودي ، سَبْحٌ مَعَ الأَقْمَارِ
وانطلاقي أسعى ، هدوءٌ مريحٌ ووقوفي ، سياحةٌ في البراري
وضَجيجُ الحجيج حولي سكونٌ وبسمعيَّ جــأرةَ الأحجــارِ

عجبا للبيت .. عجبا للكعبة .. أي سر في النظر إليها .. .

كيف تسمو بفطرتي ووجودي عن مفاهيمِ كَوْنِيَ المعهودِ

وعن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رفعه: « ينزل الله على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة: ستون منها للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين » . هكذا أخرجه العز بن فهر، وجار الله بن فهر في مسلسلاتهما .

ورواه الطبراني في معاجمه الثلاثة ، وقال البلقيني في فتاويه المكية : لم أقف له على إسناد صحيح، وقال التقي الفاسي: لا تقوم به حجة، ونقل عن الحافظ ابن حجر أنه توقف فيه، لكن حسنه المنذري والعراقي والسخاوي، وإذا اجتمعت طرق هذا الحديث؛ ارتقى إلى مرتبة الحسن. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ١٧٦٠ والضعيفة برقم ١٨٧.

كيف ترقى بطينتي وجمودي　　في سموات عَالَمٍ من خُلود

والله إنها ليست من الدنيا هذه اللحظات .

آيات الطهر .. وقد أغمضت　　وعقلي في قلبي انصهرا
وخيال جاوز طاقتي　　وامتد فأبصر ما استترا
سَبَحاتٌ فَاقَتْ سابِحهَا　　لم تُقْصد بل كانتْ قدرا

آيات تحير الألباب .. وجمال ينسيك الدنيا بأسرها .. وجلال دموع العين عنه جواب .. أي سر بين البيت والعين إذا ما نظرته .. وبين دموعها !! .

فلذا الموقف أعددنا البُكا　　ولذا اليوم الدموع تقتنى

ويرحم الله (شوقي) حين يقول :

على كل أُفق بالحجاز ملائك　　تزف تحايا الله والبركات
لدى الباب جبريل الأمين براحه　　رسائل رحمانية النفحات
وفي الكعبة الغرّاء ركنٌ مُرَحِّبٌ　　بكعبة قُصَّادٍ ، ورُكْنِ عُفاةِ[1]
وما سكب الميزابُ[2] ماءً وإنَّمَا　　أفاضَ عَليكَ الأجرَ والرَّحَمَاتِ
وزمزمُ تجري بَيْنَ عَيْنَيْكَ أعيناً　　من الكوثرِ المعسولِ متفجراتِ

قال الفاسي في [العقد الثمين] :

« للكعبة آيات بينات :

منها: بقاء بنائها الموجود الآن. وهو يقتضي أنه لا يبقى هذه المدة، على ما بلغني عن بعض مهندسي عصرنا قال: وإنما بقاؤه آية من آيات الله ». انتهى.

---

(١) مرحب : من رحب به : قال له : مرحبا . قصاد : جمع قاصد .
عفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .

(٢) الميزاب : ويقال له: مئزاب ومرزاب : ما يسيل منه الماء من مكان عال ، قالوا : ومنه ميزاب الكعبة : أي مصب ماء المطر من فوقها ، وهو المراد هنا .

ولعمري إنه لصادق ، فإن من المعلوم ضرورة : أن الريح والمطر إذا تواليا أياما على بناء يخرب .

ومن المعلوم ضرورة : أن الكعبة المعظمة ما زالت الرياح العاصفة والأمطار الكثيرة المهولة تتوالى عليها منذ بنيت وإلى تاريخه ، ولم يحدث فيها بحمد الله تغييرٌ أدى إلى خللها .

بيت يباركة الإله : رحيقُهُ تَغْنَى به الذُّرَوَاتُ والوديانُ
حرم تحَنُّ له القلوبُ ، ويرتَوي عند اللقاءِ وخَفْقِهِ الظمآنُ
والكعبةُ الغَرَّاءُ بين حجيجها نورٌ وتحت ظلاله ركبانُ
تَتقَطَّعُ الأيامُ مِنْ أَحْدَاثِهـا وحجيجُها متواصلٌ رَيَّانُ
يسعى وما ظَمَأٌ به ويهاجِر ظَمَأُ الرُّبَا ورضيعُها ظمآنُ
أمقامُ إبراهيمَ والبيتُ العتيـ ـقُ هدىً وآياتٌ لَهُ وبيانُ
الطائفونَ الراكعونَ لربهم خفقت قُلُوبُهُمْ وضَجَّ لِسانُ
تتزاحمُ الأقدامُ في ساحاتِهِ وتُرِقُّ بينَ ظلالِهِ الأبْدَانُ

حج قوم من العباد فيهم عابدة . فجعلت تقول : أين بيت ربي ؟ أين بيت ربي ؟ فيقولون: الآن ترينه :

إذا دنت المنازل زاد شوقي ولا سيما إذا دنت الخيام

فلما لاح البيت ، قالوا:هذا بيت ربك ، فخرجت تشتد وتقول : بيت ربي . بيت ربي .. حتى وضعت جبهتها على البيت ، فما رُفعت إلا ميتة .

هاتيك دارهم ، وهذا ماؤهم فاحبسْ وَرِدْ وشرقت إنْ لم تسقني
بدم المحب يباع حُبُّهُـمُ فمن الذي يبتاع بالثمن

أيُّ آثارٍ تُدهِشُ القلوب قبل العقول : ببيت ربي !! ببيت ربي :

الحجر الأسود .. الركن اليماني .. مقام إبراهيم .. الملتزم .. المستجاب .. الحطيم .. الحِجْر . تحت الميزاب .. زمزم .. ركضة جبريل .. ومع الآثار الطاهرات ، وقفة بل وقفات .